الأدب الإفريقي القديم:

1_ مفهوم الأدب الإفريقي:

هناك إجماع عام بين جمهور المستفرقين (المهتمين بدراسة الأدب الإفريقي من الغرب) أنّ الأدب الإفريقي مصطلح يعني أدب المناطق التالية جنوبا للصحراء الكبرى حتى التقاء القارة بالمحيط في أقصى الجنوب، وقد نشأ هذا الإجماع من إجماع سابق عند المستفرقين على أنّ إفريقيا قارة تقسمها الصحراء الكبرى إلى قسمين مختلفين؛ قسم يقع شمالها ويسمى إفريقيا العربية الإسلامية، وآخر يقع جنوبها ويسمى إفريقيا جنوب الصحراء أو إفريقيا السوداء. ومن الواضح أنّ القسمة جغرافية طبيعية، لا يزيد عمرها على قرن من الزمان، ولكنها وضعت في إطار سياسي استعماري واضح، الهدف منه تشطير القارة وتدعيم تجزئتها والانفراد بكل شطر على حدة من قبل الاستعمار، فلم تكن الصحراء الكبرى فاصلا حقيقيا بين الشمال والجنوب قبل الاستعمار الأوروبي، بل كانت طريق الهجرات والقوافل والتجارة بين الشمال والجنوب، ولم يكن العرب أبناء الشمال في عزلة عن الزنوج طوال قرون حتى القرن 19م الذي تمت فيه السيطرة على شطري القارة.

لقد تنوّعت مفاهيم الأدب الإفريقي عند المستفرقين والأفارقة على حدّ سواء؛ فمنهم من يخرج الأدب العربي في شمال إفريقيا من الأدب الإفريقي، ومنهم من يحصره في أدب ما وراء الصحراء الكبرى، ومهما قيل في ذلك فإنّ الأدب الإفريقي قد عاش خارج مجال اللغة العربية قرونا عديدة على الاتصال الشفوي ولم يدوّن منه إلا القليل، بسبب صعوبات الجمع والتدوين، وكثرة اللغات المحلية غير المكتوبة، ويسر الكتابة والنشر باللغات الأوروبية، حيث انصرفت عناية الإفريقيين والمستفرقين إلى الأدب المكتوب عموما، وعلى رأسه ما كتب بلغات أجنبية، ومع أنّ ثمة محاولات إفريقية للكتابة باللغات اللاتينية، والهولندية، والإسبانية، فأصحابها لا يزيدون على خمسة كتّاب، ومحاولات فردية لم تتكرّر، فضلا عن هشاشة إنتاجهم وضعف قيمته الفنية، ولذلك يفرض الأدب المكتوب باللغات الفرنسية والبرتغالية، والإنجليزية وجوده على الباحث إفريقيا كان أم مستفرقا.

ويمكن تقديم مفهوم للأدب الإفريقي من خلال ما قاله الروائي النيجيري **تشينوا أتشيبي**: «لا يمكن أن تحشر الأدب الأفريقي في تعريف صغير محكم... فأنا لا أرى الأدب الأفريقي كوحدة واحدة ،إنّما أراه كمجموعة من الوحدات المرتبطة– تعني في الحقيقة المجموع الكلي للآداب "القومية" و"العرقية" في أفريقيا» ، بهذا المعنى الموضوعي الواسع يمكن أن ننظر إلى الأدب الأفريقي في كليته كأدب قارة ،أو في جزئيته كأدب إقليم معين أو منطقة معينة في القارة.

2– الأدب الشفوي الإفريقيّ:

كانت المشافهة وسيلة الاتصال الرئيسة في الحضارة الإفريقية القديمة، ويمكن القول إنّ مجمل ما وصل إلينا من هذه الآداب الشفوية يدور حول الخرافات والأساطير التي تشوبها المبالغة، ويختلط فيها الواقع بالخيال، إضافة إلى بعض الأشعار المروية، والفنون الاحتفالية(المسرح) التس أسهمت بدور مميز في هذه الآداب، حيث تضمنّت نقدا اجتماعيا.

– أمّا عن الأساطير، فقصص الخلق من أغناها وأكثرها تنوعا وخيالا عند الأفارقة ، فشعب الكونغو يعتقد مثلا أنّ القوة الحقيقية في العالم هي الموت الموجود قبل الإله، في حين يعتقد شعب زامبيا أنّ الإله يتراجع بائسا أمام قوّة الإنسان، ويؤمن شعب (إيبو) في النيجر أنّ الآلهة الخالقة تسمح للإنسان باختيار مصيره قبل أن يولد، ويذهب الرعاة من شعب مالي إلى أنّ أصل الخليقة هي نقطة الحليب المقدّسة، وأكثر قصص الخلق عند شعوب إفريقيا تلك التي تتحدّث عن خلق العالم في سبعة أيّام.

– أمّا الشعر الإفريقي فتطغى عليه عبارات التمجيد، والتبريك التي تشمل الآلهة، الإنسان، الحيوان، النبات، والبقاع أيضا، وأمّ أناشيد التمجيد في إفريقيا تلك التي تتناول زعماء القبائل، وقادة الحروب، كأناشيد المديح التي تمجّد زعيم الزولو العظيم (شاكا).

– وتنتشر القصص الشعبية في إفريقيا إلى جانب الأساطير والشعر، وأشهرها، وأكثرها انتشارا: قصص الحيوانات الماكرة، كالأرنب البريّ، والعنكبوت، حيث تتميّز عندهم هذه الحيوانات بالحيلة ، والدهاء تهزم بهما أعداء أكبر منها، وأقوى، ويتفرّع من قصص المكر هذه: قصص الهروب التي يبحث فيها البطل عن مخرج من مهمة مستحيلة، وضعته فيها الظروف.

– ويعتمد فنّ الحديث عند الأفارقة على الأمثال اعتمادا واسعا، حيث تعبر عن حكمة هذه الشعوب، وتجاربها، وأخلاقها، وسعّة خيالها، وغالبا ما يكتفى بقول نصف المثل، ويترك النصف الآخر للسامع حتى يكمله.

– وللألغاز في إفريقيا حضور دائم كذلك، خاصّة في مجالس السمر، حيث تأخذ هذه الألغاز صيغة العرض والإفادة لا السؤال.

3- الأدب المكتوب باللغات الإفريقية:

يمكن حصر اللغات المحليّة الإفريقية على كثرتها في عشر مجموعات أساسية، تضمّ كلّ مجموعة منها عددا كبيرا من اللغات، أو اللهجات، وهي:

- المجموعة الماندية في مالي وأعالي خليج غينيا.

- المجموعة الكنغولية الكردفانية(نسبة إلى كردفان بالسودان)، النتشرة ما بين نهر السينيغال وكينيا.

- مجموعة البامبارا في النيجر.

- السواحلية في كينيا، وتنزانيا، وأوغندا، وأجزاء من الكونغو.

- الحوصة في غربي إفريقا.

- الجعزية، والأمهرية، والتيغرية، والتغرانية في إثيوبيا.

- الأمازيغية(البربرية) في المغرب العربي.

- إضافة إلى العربية التي تعدّ أوسع اللغات انتشارا في إفريقيا.

ومعظم هذه اللغات الإفريقية غير مكتوبة، ولم يحاول المستعمر الأوروبي تطويرها، أو توحيدها، بل شجّع استعمال اللهجات المحليّة ليزيد القبائل فرقة، وحارب اللغة العربية خاصّة، وحاول فرض لغته وثقافته في المناطق المستعمرة، فسادت فيها الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الإسبانية، أو البرتغالية بحسب لغة المستعمر، ما زاد في اضمحلال اللغات المحليّة، واندثارها.

على أنّ الدعوة إلى إحياء تلك اللغات، واستعمالها ازدادت قوّة بعد الاستقلال، فعادت إلى الحياة بعض اللغات القديمة، إلى جانب ظهور لغات جديدة كالأفريكانية التي انتشرت جنوبي إفريقيا بين السكان المحليين، وهي خليط من بعض لغات(البانتو) و(الزولو)،إضافة إلى الإنجليزية، والهولندية.

المصادر والمراجع:

– فريدة بوزيداني، دروس في الآداب الأجنبية،جامعة التكوين المتواصل، 2007،2008.

– فؤاد المرغي، المدخل إلى الآداب الأوروبية، منشورات جامعة حلب، سورية، ط2، 1992.

– أحمد أمين وزكي نجيب محمود، قصة الأدب في العالم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،(دط)، 1943، ج1.